٩٩/١٩/٤/١٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٤٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٤٠٨٠

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

المبشرون والمستشرقون

وموقفهم من الإسلام (★)

د. محمد البهي

مقدمة

إذا كان من دواعي استقرار الحكم الوطني في مصر الحديثة الثائرة عزل عملاء السياسة وإبعادهم عن الحياة السياسية ـ فإن من صالح قيادة الأمة، كشعب موحد الاتجاه، قوي في أحاسيسه المشتركة، أن ينحى عملاء التبشير والاستشراق من جوانب التوجيه العام سواء في التثقيف، أو النشر، أو الصحافة أو الإذاعة.

إن عملاء التبشير والاستشراق ـ وهم عملاء الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي ـ هم الذين دربتهم دعوة التبشير على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة وعلى التنديد والإستخفاف بها. وهم الذين وجههم كتاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف في صورة البحث، وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش في الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة.

إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية، وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية.

- **فهناك الدعوة إلى:**

ـ أن القرآن كتاب مسيحي يهودي نسخه محمد.

ـ وأن الإسلام دين مادي لا روحية فيه، يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة.

(★) عن كتاب: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي؛** الطبعة الخامسة ـ دار الفكر بيروت ١٩٧٠ (ص ص ٥١٩ - ٥٣٧).

ـ وأنه ـ أي الإسلام ـ يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين عامة .

ـ كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق في الملذات الدنيا .

• **وهناك الدعوة إلى:**

ـ أن الفلسفة العربية فكر يوناني، كتب بأحرف عربية .

ـ وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم، وبدلاً منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضاً عن الأحرف العربية .

• **وهناك الدعوة إلى:**

ـ إحياء الفرعونية في مصر. والآشورية في العراق. والبربرية في شمال إفريقية. والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان .

ـ وإلى تفضيل الفارسية ـ كلغة آرية ـ على العربية كلغة سامية .

ـ وإلى أن الذي حمل أمارات الحياة الأدبية الجديدة في الشرق العربي في نهاية القرن التاسع عشر، وكذا في الشرق الإسلامي، وحمل مظاهر الحضارة عامة ـ هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الاميركيين في سوريا .

ـ وإلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية في شمال إفريقية والأندلس .

• **وهناك الدعوة إلى:**

ـ التنفير من حياة المسلمين الحاضرة؛ لأنها حياة بدائية ذليلة .

ـ وإلى أن السبب في ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها .

والتبشير والاستشراق في ذلك سواء، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمي الأكاديمي » بينما بقيت دعوة التبشير في حدود مظاهر « العقلية العامة » وهي العقلية الشعبية .

استخدم الاستشراق: الكتاب. والمقال في المجلات العلمية، وكرس التدريس في الجامعة، والمناقشة في المؤتمرات « العلمية » العامة .

. أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء. كما سلك سبيل العمل « الخيري » الظاهري في المستشفيات، ودور الضيافة

والثورات من ناحية والأحزاب والفرق المغالبة من ناحية أخرى، تفلّ من غربه. والحقيقة، أن الفعل الاسلامي فقد من قوته المبدعة منذ خلافة عثمان، الذي كدر صفوه بمشاغل الحياة الدنيا؛ وحينما آلت الخلافة إلى علي لم يتمكن من العودة به إلى ينبوعه الصافي، لقصر مدة خلافته، ولتحويل معاوية الخلافة إلى مُلك عضوض، ولوصول العباسيين إلى الملك بمساعدة الفرس، الذين كانوا يريدون الملك لأنفسهم، ثم لانقسام السلطة إلى عدد كبير من السلطات سواء في الشرق أم الغرب؛ بل إن الحروب الصليبية في الشرق وحروب الاسترداد الاسبانية في الاندلس، لم تمكّن المسلمين من العودة إلى استلهام الفعل الاسلامي الخالص.

وحينما قامت الدولة العثمانية، كان ميلادها في أرض بعيدة عن موطن الدعوة الاسلامية، فنمت وظهرت بعيدة عن الاسلام، ثم اتخذت الاسلام ديناً باحتكاكها بالمسلمين، فكان الاسلام شيئاً إضافياً إلى التركيّة، فتلونت به في الظاهر، ولم يغير في جوهر الفعل التركي شيئاً. والحقيقة، لقد كان الفعل الاسلامي ـ الذي بدأ بغار حراء، وانتهى بنزول القرآن، ورافقت سوره الأحاديث النبوية في شتى الموضوعات والمناسبات، وما لبث أن تفاعل مع الثقافات على اختلافها، من دون أن ينسى ذاته ـ شيئاً آخر غير الفعل التركي الذي كان فعلاً عسكرياً سياسياً في جوهره. يقول **فيليب حتي** في العثمانيين: «إن فلسفة العثمانيين السياسية، كما فهمها الوالي العادي على الأقل، كانت تقوم على أن الشعوب المغلوبة من غير المسلمين، كانوا «رعية»، «يتعهدهم الراعي» لمنفعة الفاتح. وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية، كان يعبر كذلك عن المدارك التقليدية التي جالت في أذهان الأجيال التي انحدرت من القبائل البدوية في آسيا الوسطى؛ فالشعوب المغلوبة في رأيهم بمثابة المواشي الانسانية، ولذلك اقتضى الأمر أن «يحلبوا» و«يجزوا»، وإنما تيسَّر لهم أن يعيشوا كما يبتغون، ما داموا لا يسبّبون المتاعب. ولمّا كان أكثرهم من الفلاحين والصناعيين والتجار، لم يطمحوا إلى الانخراط في سلك الجندية، ولا نزعوا إلى تولي المناصب المدنية. لكن «القطيع» كان بحاجة الى «كلاب حراسة»، وكان هؤلاء المجندون يخضعون لمنهج عنيف في التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة، ويمرون في مباريات شاقة، وغربلة دقيقة؛ فمن أبان عن فطنة وتوقد ذهن، أُعد من جديد لتولّي المناصب الحكومية. ومن تميَّز بالقوة الجسدية، وُجِّه إلى الخدمة العسكرية، وكان أصلبهم يُحوَّل إلى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية. وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في الامبراطورية في أول الأمر، ينتقيان منهم على سبيل الحصر، فرؤساء الوزراء والوزراء وأمراء البحر والقواد وحكام الأقاليم، جميعهم كانوا فيما سبق عبيداً، وكذلك بقوا فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن، تحت رحمة سيدهم السلطان، الذي ما تردَّد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية. وليس في التاريخ المدوَّن جهاز إداري آخر مواز لهذا الجهاز الغريب، فقد جعل بيت عثمان الأسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية، ووضع في يدهم سلطة مطلقة لإدارة الدولة، والذود عن حياضها»[٢٧].

صورة الدولة العثمانية هذه، تبيّن إلى أيّ حد كانت فلسفة العثمانيين قائمة على الحرب والسياسة؛ ولهذا لم يهتم العثمانيون بالأمور الثقافية، وفي هذا يقول **محمد كرد علي:** « ومن أهم ما قضى على مدنية العرب في عهد الترك، إهمال المدارس وامتداد أطماع الطامعين في استصفائها، ونزع وقوفها وأحباسها، وفي الخطط التوفيقية. إن النظّار في مدارس القاهرة تصرّفوا في خلال ثلاثة قرون من العهد التركي على غير شروط وقفها؛ وامتنع الصرف على المدرسة والطلبة والخدمة، وانقطع التدريس بالكلية لكثرة الاضطرابات، وبيعت كتب المدارس وانتُهبت، حتى آلت الحال ببعض المدارس الفخمة، والمباني الجليلة، أن أصبحت زوايا صغيرة، وزال بعضها جملة، أو صار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك. ومثل هذا، وقع في عاصمة الشام، فقد دخل الأتراك دمشق، وفيها أكثر من ١٥٠٠ مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة، ومدارس الطب، ومدرسة الهندسة، عدا الربط والخوانق والمستشفيات؛ وخرجوا منها بعد زهاء أربعة قرون، وليس فيها سوى بضع مدارس عامرة بعض الشيء، ولا تدريس فيها. هذا عدا ما كان من المدارس الجليلة في مدن الأقاليم، كالقدس وحماة وحمص وحلب وطرابلس وغيرها. وكلها أصيبت بما أصيبت به مدارس دمشق؛ وجميع هذه المدارس كان فيها خزائن كتب، وعامة المرافق، وأسباب الراحة والتشويق والاستفادة تامة. ومثل ذلك قل في مدارس العراق، ولا سيما الموصل والبصرة وبغداد؛ وناهيك بالمدرسة النظامية (٤٥٩ هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١ هـ) في بغداد »[٢٨].

فأين الفعل التركي من الفعل الاسلامي الذي هضم الثقافات المختلفة السائدة حينذاك في البلاد المفتوحة، مثل الثقافة اليونانية والرومانية والهندية والفارسية... الخ؟! لهذا لا يمكن عد الفعل التركي امتداداً للفعل الاسلامي، ولا سيما أنه كان فعل تحرير لا فعل استعباد، فعل خير يعمم على الناس كافة، لا فعل « حلب » و« جز »، فعل تنوير لا فعل تجهيل...

٦ ـ الاستعمار الأوروبي

بينما كان العرب سجناء القوقعة التركية، كان الاوروبيون يجوبون أنحاء الدنيا بحثاً عن المستعمرات والثروات والقوة، دون أن يردعهم رادع، أو يحكّموا مبدأً من المبادىء، غير الطمع والتسلط؛ ونحن إذ نقول ذلك، نستوحي مؤرخاً من مؤرخيهم، ـ ويحسن بنا أن نصغي إليه، على أنه شاهد من أهلهم ـ يقول: « وقد قضى الاوروبي أربعة قرون في الارتحال بحراً إلى كل أجزاء الدنيا، يتاجر ويبحث عن أسواق، ويتسلّط على قارات نصف فارغة، وعلى جزائر استوائية، ويعيش على الثروات الطبيعية للمناطق الاستوائية، كالسكر والقطن والأرز والبهار والشاي والقهوة والمطاط. والحكاية منوعة، بطولية، فظيعة، قاسية كالحياة الانسانية ذاتها؛ إنها حكاية أمم متفرّقة، ومغامرات متفرقة، وشركات تجارية متفرقة، وكنائس متفرقة، عدائية في بعض الأحيان، كلها يكافح بعضها بعضاً. وهذه المغامرة المتعدّدة النواحي التي صنعتها الشعوب البيضاء مع الشعوب السمراء

والسوداء والصفراء، مبعثها دوافع من كل صنف، ابتداء «من الجوع اللعين إلى البحث عن المذهب»، إلى حمية نشر الدين الخالصة. لقد صدرنا حروبنا وضغائننا، هذا في حين أن الرومان عندما ملكوا امبراطورية برية كبيرة، كانوا غالباً ما يرسلون إلى الخارج خير رجالهم لحكم الأقاليم، بل إن أباطرتهم كانوا يعنون شخصياً بالمسائل الاقليمية. أمَّا الأمم الاوروبية، فقلّما أرسلت سياسييها البارزين ليحكموا في الخارج، وكانت مغامراتهم البحرية ـ إلى حد كبير ـ عفوية تعتمد على المصادفات»[٢٩].

بهذه الروح، بدأت حركة الاستعمار الاوروبية ابتداء «من الجوع اللعين إلى البحث عن الذهب»؛ فكانت روح مغامرة وتجارة وكسب لأمم متفرقة، ومغامرات متفرقة، وشركات تجارية متفرقة، وكنائس متفرقة، يحمل بعضها العداء للآخر، وتسيرهم الضغائن والعداوة والحروب. لم يكن أصحابها من السياسيين البارزين، بل كانوا مغامرين تتحكم بهم عفويتهم المعتمدة على المصادفات؛ ولكي نفهم هذه الحركة الاستعمارية، سنأخذ المثال الذي ضربه **ل. ج. شيني** عن شركة الهند الشرقية، يقول: «كانت شركة الهند الشرقية الهولندية الشهيرة ـ التي طردت البرتغاليين من الشرق ـ كانت «دولة» في حد ذاتها تعلن الحرب وتعقد الصلح وتسك عملتها الخاصة، وتوفد ملاحين ذائعي الصيت، ليرودوا البحار الجنوبية، ويستكشفوا شواطىء استراليا وتسمانيا ونيوزيلندا. بل إن الاسطول الهولندي كانت له أسطورته المرعبة ـ حكاية الهولندي الطائر ـ وموضوعها سفينة مجهزة أحسن تجهيز رؤيت تنساق أمام العاصفة، وقد مات ملاحوها جميعاً بداء الجرب. وهذا منظر يرتعد له البحارة الذين يتأثرون بالخرافات»[٣٠].

تلكم هي صورة الاستعمار الاوروبي كما صورتها اسطورتهم ذاتها، سفينة تجوب البحار حاملة الجرب إلى أنحاء العالم، من دون ملاحين يقودونها أو يوجهونها. وإذا كانت هذه حقيقته، فكيف قُدِّر لأصحابه أن ينتصروا على الشعوب، ومنها الشعوب العربية؟ لكي نجيب عن ذلك، لا بد لنا من النظر إلى الفعل الاوروبي، لمعرفة حقيقته.

إن فهم الفعل الاوروبي يرتد بنا إلى عصر الإحياء الاوروبي (عصر النهضة)، ففي ذلك العصر بدأ هذا الفعل يشق طريقه ويصنع تاريخ اوروبا، وحتى نفهم هذا الفعل حق فهمه، يمكننا أن نتخذ من كتاب **ب. م. هولت** «صانعو أوروبا الحديثة» دليلاً موجهاً. يتميَّز عصر النهضة بأنه عصر استكشاف، حاول فيه الاوروبيون أن يكتشفوا مجاهل العالم، كما كان محاولة للإصلاح الديني؛ فظهرت حركات إصلاحية دينية في عدد من البلاد الاوروبية. ولكنه كان، فضلاً عن هذا وذاك، محاولة ناجحة كل النجاح في إقامة العلم الحديث والتقنية الحديثة من ناحية، وإقامة الدولة القومية والحكومة الديموقراطية من ناحية أخرى[٣٠].

ونحن نرى إن رد الفعل الاوروبي إلى هذه العناصر صحيح إلى حدٍّ ما، وإن كان اغفل الفلسفة والتشريع،

وهما عنصران بارزان في الحضارة الاوروبية. قد يكون هذا راجعاً إلى أن الفلسفة هي عنصر جوهري في الفعل الاغريقي، وأن التشريع عنصر جوهري في الفعل الروماني، وأنهما ـ بما هما كذلك ـ دخيلان على الفعل الاوروبي. من وجهة النظر هذه، ألا يكون العنصر الديني عنصرا دخيلاً على الفعل الاوروبي؟ المعروف، أن المسيحية نشأت في فلسطين، ثم انتقلت إلى أوروبا، ولم تصبح ديناً رسمياً إلاَّ حينما تنصَّر الامبراطور الروماني قسطنطين. وهكذا تكون المسيحية عنصراً غريباً عن الفعل الاوروبي، وفد إليه من الخارج. وهذا يعني، أن الفعل الاوروبي ينحصر في فعلين هما: العلم ـ التقنية في مجال الطبيعة، والقومية ـ الديموقراطية في مجال الدولة، وقد انضاف إليهما الميل إلى الاستكشاف الذي أصبح استعماراً؛ في حين ظلت الفلسفة تعمل مستقلة، ولا تنفذ لا هي ولا الدين إلى الفعل الاوروبي، لترفعاه من مستوى الجزئية إلى الكلية.

وهنا يمكننا أن نرى في بادىء النظر، أن الفعل الاوروبي فعلٌ غني العناصر. ولكن إنعام النظر يرينا أن العناصر التي دخلت في تأليفه ليست أكثر من العناصر التي دخلت في الأفعال الاخرى، وإنما هو كان فعلاً لم يكتمل بقيمة عليا توجهه وجهة واحدة. فالفعل الاغريقي كانت توجهه الحقيقة (الفلسفة)، والفعل الروماني كانت توجهه الفضيلة (الاخلاق والتشريع)، والفعل الاسلامي كانت توجهه الحقيقة ـ الخير (الدين)؛ ولهذا كانت هذه القيم تضفي الوحدة على العناصر المختلفة التي يتكوَّن منها الفعل. أمَّا بالإضافة إلى الفعل الاوروبي، فرأينا أن الاستكشاف (وهو بحث عن الحقيقة، بل الحقائق الجزئية) سرعان ما تحوَّل إلى استعمار (استخدام الحقيقة من أجل النفع الشخصي)، وقد وضع في خدمته العلم ـ التقنية من جهة، والقومية ـ الديموقراطية من جهة أخرى؛ فإذا العلم ـ التقنية، أي الحقيقة الجزئية ـ الخير الجزئي، والقومية ـ الديموقراطية، أي الدولة القائمة على اساس القربى والتي تمنح الخير لذوي القربى جميعهم، يأخذان وجهين غير وجهيهما بتأثير النزعة الاستعمارية، فتصبح الحقيقة الجزئية سبيلاً إلى الخير الجزئي، أي استئثاراً به دون الآخرين، وتصبح الدولة القومية الديموقراطية، امبراطورية استبدادية؛ وتظل الفلسفة والدين فعلين يرافقان الفعل الاوروبي، ولكن من دون أن ينفذا إليه ويغيِّرا من طبيعته.

ذاكم هو الفعل الاوروبي في جوهره، وهو يبدو فعلاً واحداً في التجريد، ولكن الناظر في التاريخ الاوروبي سرعان ما يكتشف أنه أفعال كثيرة في التشخيص. ولهذا ظلَّت القيم غريبة عنه، على الرغم من أن أوروبا كانت تنادي بقيم الحق والخير والجمال. ولكن، من المؤسف أن نقول، إن هذا ظل في مجال الأدب والفلسفة، ولم يتطرَّق الى الفعل السياسي الذي ظل مكياڤللياً على الرغم من نقد مفكري اوروبا للمكياڤللية.

والحقيقة، لقد اندفعت هولندا واسبانيا والبرتغال وفرنسا وانكلترا ـ كل على حدتها، وبأسلوبها المستقل عن أسلوب الأخرى ـ في استكشاف العالم واستعماره حتى أنها كثيراً ما كانت تصطدم فيما بينها، ويسطو بعضها على

بعض، من دون أن يكون ذلك من منظور قيمة من القيم، إلا إذا عددنا الاستعمار ذاته قيمة.

وكل هذا يشير إلى طابع واضح في الفعل الاوروبي، وهو الاتجاه نحو الجزئيات، وما يتعلق به من روح الاثرة والانانية. وكان هذا الوضوح بارزاً في الحركة العلمية ـ التقنية، التي يمكننا أن نضعها في مقابل الحركة الاسلامية في توجهها نحو الحقيقة ـ الخير؛ ولكننا، إذا انعمنا النظر فيهما، وجدنا بينهما تلاقياً من ناحية، وافتراقاً من ناحية أخرى: إن العلم يبحث عن الحقائق الجزئية، فهو من هذه الناحية، يدخل في مملكة الحقيقة، وكذلك التقنية فهي تسعى إلى استحداث خيرات صناعية لم تكن، وهي تدخل بذلك في عالم الخير. ولكن الحقيقة كما تمثَّلها الفعل الاسلامي كانت حقيقة مطلقة، حقيقة الكون كله؛ وكذلك الخير الذي تصوّره الفعل الاسلامي كان خيراً مطلقاً، خير الناس كافة. ومن هنا كان الاختلاف بين الحقيقة ـ الخير والحقائق ـ الخيرات، أي العلم ـ التقنية، لقد كانت القيمة في الفعل الاسلامي مطلقة، وكانت في الفعل الاوروبي نسبية، فهل بإمكان الفعل الاوروبي أن يرتفع إلى مستوى الكلية؟

إننا نعتقد أن ذلك ممكن، إذا تربَّى ساسة أوروبا تربية فلسفية. والفلسفة ليست غريبة في أوطانهم، ولكنها تقتصر على المجال الثقافي وحده، ولا تنفذ الى الفعل السياسي، الذي يتأثر بالنزعة العلمية، والذي تسيِّره روح التجارة والكسب فتدفعه إلى الاستزادة من المخترعات التقنية، والذي تدفعه روح المغامرة والحرب إلى الاستفادة من العلم والتقنية، في فرض السيطرة وإخضاع الشعوب. وقد انتبه إلى هذا الخطر فيلسوف كبير من فلاسفة الغرب، هو الفيلسوف البريطاني المتأمرك، **الفرد نورث هوايتهد**، حين قال: «إن اضمحلال المثل العليا ينطوي على بداهة محزنة لخيبة السلوك البشري، ففي مدارس القدماء، كان الفلاسفة يطمحون الى نقل الحكمة. وفي معاهدنا الحديثة، ينصب هدفنا المتواضع على تعليم الموضوعات. إن الانحدار من الحكمة الإلهية التي كانت هدف القدماء، إلى المعرفة الكتبية للموضوعات ـ هذا الانحدار الذي قام به المحدثون ـ ليَدلُّ على قصور تربوي أُخذ به في خلال العصور»[٣٢].

وإذن، لا بد من العودة إلى المثل العليا، وهذه المثل العليا لا يمكن الوصول إليها من دون الفلسفة. ولكن المثل العليا لا يجب أن تبقى في حدود الحقائق النافعة والقابليات الذهنية الميكانيكية، ولهذا يعلِّل هوايتهد: «ولكن، حينما تنحدر المثل العليا إلى مستوى العمل، يكون الركود هو النتيجة. فعلى وجه الخصوص، لا يمكننا أن نجد تقدماً، ما دمنا نتصور التربية العقلية وكأنها تقوم فقط على كسب القابليات الذهنية الميكانيكية، والتعابير المصوغة للحقائق النافعة؛ على الرغم مما هنالك من فعالية كبيرة نقوم بها، بين إعادات تنظيم لمخططات بحث لا هدف لها، في محاولة لإضاعة الوقت التي يمكن تفاديها. إنه لا بد لنا من أن نرى الأمر على أنه حقيقة لا مفر منها، وهي أن الله خلق العالم على هذا النحو، بحيث كان يضم من الموضوعات التي نرغب في معرفتها، أكثر مما

في استطاعة أيِّ انسان أن يكتسبه. فما من أمل في مقاربة المسألة بتعداد الموضوعات التي يتوجَّب على كل فرد أن يتمكَّن منها؛ فهناك الكثير الكثير منها، وكلها لها صكوك تملُّكها الممتازة. ربما كانت هذه الوفرة في الموضوعات من حسن الحظ، بعد كل شيء، لأن العالم يصبح مثيراً للاهتمام من جرّاء جهلنا السار بالحقائق المهمة، فما أنا متلهِّفٌ على غرسه في نفوسكم، هو أن المعرفة ـ على الرغم من أنها هدف رئيسي من أهداف التربية العقلية ـ لا تنفي وجود عنصر آخر أكثر إبهاماً، ولكنه أجلُّ شأناً، وأكثر سلطة في خطورته. إنه ما دعاه القدماء بـ «الحكمة»: إنك لا تستطيع أن تكون حكيماً، من دون أساس من المعرفة. ولكن، بإمكانك أن تكتسب المعرفة بسهولة، وأن تبقى عارياً من الحكمة»[٣٣].

وإذن، فالفعل الاوروبي تنقصه الحكمة، ولكن الحكمة ليست غريبة عنه، بل تعايشه عن قريب، ولكنها لا تندمج فيه وتصبح مهمته وموجِّهَته. وهذا ما تفتقر إليه البشرية، ليكتمل انتفاعها بالحضارة الاوروبية؛ ولكن هذا لم يحدث حتى الآن، وظل روح الفعل الاغريقي مرفرفاً في سماء أوروبا، ولكنه لم يهبط إلى أرضها، ليندمج في الفعل الأوروبي، ويطبعه بالطابع الانساني. والحقيقة، إن هذا هو الطريق الوحيد لخلاص البشرية، لأنه الفعل الأقوى في العالم، وما من فعل يمكنه أن يقف في وجهه. إذ إن الأفعال كلها تحولت إلى حتميات عاجزة أمامه. حتى الفعل الإسلامي غاب عن مسرح التاريخ، وما من قوة يمكن أن تعيده إلى الحياة، بل لو افترضنا عودته، فلا بدَّ له من أن يمتص الفعل الأوروبي وأن يرفعه إلى مستوى الحقيقة ـ الخير، ليستفيد من قوته العلمية ـ التقنية، ويعطيها نور الحقيقة ـ الخير؛ فيصبح العلم ـ التقنية حقائق ـ خيرات، تدور في فلك الحقيقة ـ الخير، التي هي ملك البشرية بأسرها.

خاتمة ـ الفعل والقيم

وبعد، ما الذي نستطيع أن نستخلصه من كل ما سبق؟ وما الدرس الذي يمكننا أن نتعلمه من تاريخ الصراع بين أوروبا والمسلمين: بين بيزنطة والاسلام، وبين الصليبيين والاسلام، وبين الإيبريين والاندلسيين، وبين أوروبا الحديثة والعرب؟

يمكننا أن نرى منذ البداية، أن لكل أمة فعلاً تظهر به على مسرح التاريخ، فالرومان كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية الرومانية، والعرب كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية الاسلامية، والأتراك كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية العثمانية، والأوروبيون كان لهم فعلهم الذي أقاموا به الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية، والامبراطورية الهولندية، والامبراطورية البرتغالية والامبراطورية الاسبانية. وإن هذا الفعل يكون مبدعاً في أول أمره، ثم يستنفد

النزعات الشعوبية، مثل الفرعونية في مصر، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا وهكذا . . .

سبل المبشرين إلى بلوغ غاياتهم

وتنوعت أساليب التبشير في توصيل هذا التصوير المشوّه للإسلام ورسوله والمسلمين، إلى أجيال المسلمين جيلاً بعد جيل منذ أن استقر في الشرق العربي والإسلامي . فكانت

ـ المدرسة ـ الكلية ـ الجامعة ـ الندوة ـ الرياضة ـ النزل ـ الكتاب ـ الصحافة ـ المخيم ـ المستشفى ـ دار النشر والطباعة .

وإن من أشهر المؤسسات التعليمية في الشرق العربي جامعة القديس يوسف في لبنان، وهي جامعة بابوية كاثوليكية « وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية » .

والجامعة الأميركية ببيروت التي كانت من قبل تسمى « الكلية السورية الإنجيلية »، ثم كلية بيروت . وقد أنشئت في عام (١٨٦٥)، وهي جامعة بروتستانتية .

والكلية الأميركية بالقاهرة التي أصبحت فيما بعد « الجامعة الأميركية » وقد كان القصد من إنشائها . أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر .

وكلية روبرت في استنبول التي أصبحت تسمى « بالجامعة الأميركية » هناك .

والكلية الفرنسية في لاهور، وأسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامي الفريد في تكوينه في شبه القارة الهندية . ومن المنشور الذي أصدرته الجامعة الأميركية في بيروت في عام (١٩٠٩)، رداً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة ـ يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها . ونص هذه المادة ما يلي :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية . وهم انشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء؛ ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده . **فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ . . .** وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه »[١٣] .

كما أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة : « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني، ولا لبث الأخلاق الحميدة، **ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور**

المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به»[١٤].

وكما يستخدم المبشرون دور التعليم ـ بعد أن يموهوا بأسمائها على الرأي العام للتبشير، يستخدمون كذلك الوسائل الأخرى التي أشرنا اليها هنا سابقاً، للغاية نفسها، وبالأخص الصحافة. فكتاب «التبشير والاستعمار» يذكر نقلاً عن مصادر للتبشير ما يلي:

«يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة»[١٥].

والمبشرون يسيرون في تحقيق هدفهم وفق خطط معينة مدروسة، يجتمعون من أجلها بين الحين والحين. ولذلك نرى أنهم عقدوا عدة مؤتمرات لهذه الغاية:

مؤتمر القاهرة في عام (١٩٠٦). ومؤتمر بيروت في عام (١٩١١). ومؤتمر القدس في عام (١٩٢٤). ومؤتمر القدس في عام (١٩٣٥).

وفي كل مؤتمر من هذه المؤتمرات، تدرس المشروعات وتوضع الخطط، ثم يجري تنفيذها في سرية تامة وبهمّة دائبة.

نشأة الاستشراق

يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدن الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك، غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تلق الضوء الكافي على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة «عهد الاصلاح الديني»، كما يشهد بذلك التاريخ في هولانده والدانيمارك وغيرهما[١٦].

أسباب الاستشراق

والسبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق، هو سبب ديني في الدرجة الأولى. فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة. وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي فشعر المسيحيون: بروتستانت وكاثوليك، بحاجات ضاغطة لاعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الاصلاح ومن هنا اتجهوا الى الدراسات العبرانية. وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالاسلامية؛ لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى وخاصة ما

تملأها إلاَّ قيمة العدالة الاجتماعية .

وهكذا ، إذا تمكنت الاشتراكية من الارتفاع من العدالة الاجتماعية إلى القيم العليا ، وتمكَّنت الرأسمالية من ملء الفجوة بين الفكر والحياة الاجتماعية ، بالعدالة الاجتماعية ، أمكننا أن نرى الأمل يتحقَّق في استمرار الفعل الاوروبي ، واستمرار البشرية في الحياة .

الحواشي:

(١) دونالد ر . دولي : حضارة روما ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٤ ، (ص ٦) .
(٢) ل . ج . شيني : تاريخ العالم الغربي ، مكتبة النهضة العربية ، (ص ٦٣) .
(٣) ستيڤن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ ، (ص ٢٥) .
(٤) المصدر السابق (ص ٣٧) .
(٥) المصدر السابق ، (ص ٢٨ ـ ٣٩) .
(٦) محمد حسين هيكل : حياة محمد ـ الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ١٣٠) .
(٧) ابن هشام : ج ٤ ، ص ٣٤٠ ؛ الطبري : ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ نقلاً عن حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ١ ـ الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ ، (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦) .
(٨) الطبري : ج ٤ ، ص ٥٤ ؛ ابن الاثير : ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، نقلاً عن حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام : ج ١ ، (ص ٢١٢) .
(٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١ ، (ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧) .
(١٠) المصدر السابق ، (ص ٢٦٧ و٣٥٧) .
(١١) المصدر السابق ، (ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨) .
(١٢) تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، (ص ٢٤٣) .
(١٣) المصدر السابق ، (ص ٢٤٤) .
(١٤) المصدر السابق ، (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .
(١٥) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ـ الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ ، (ص ٢٩٦) .
(١٦) ل . ج . شيني : تاريخ العالم الغربي ، (ص ١٢٩ ـ ١٣٠) .
(١٧) المصدر السابق ، (ص ١٣١) .
(١٨) الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ـ الطبعة الثانية ، (ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨) .
(١٩) المصدر السابق ، (ص ٤٦٩) .
(٢٠) المصدر السابق ، (ص ٤٧٠) .
(٢١) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ـ الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٠ ، (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) .
(٢٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩ ، (ص ٧٠ ـ ٧٥) .
(٢٣) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، (ص ٢٦٥) .
(٢٤) تاريخ العالم الغربي ؛ مصدر سابق ، (ص ١٧٤) .

(٢٥) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ـ دار الثقافة، بيروت ١٩٥٩، (ص ٣٠٣).
(٢٦) المصدر السابق، (ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٢٧) المصدر السابق، (ص ٣١١ ـ ٣١٢).
(٢٨) الاسلام والحضارة العربية، ج ١؛ مصدر سابق، (ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧).
(٢٩) تاريخ العالم الغربي؛ مصدر سابق، (ص ٣٦٤).
(٣٠) المصدر السابق، (ص ٣٦٦).
(٣١) ب. م. هولت: صانعو اوروبا الحديثة ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ١٩٨٠.
(٣٢) الفرد نورث هوايتهد: أهداف التربية (The Aims of Education) ـ الطبعة الثانية، منشورات المكتبة الأميركية الجديدة، نيويورك ١٩٥١، (ص ٤٠).
(٣٣) المصدر السابق، (ص ٤٠ ـ ٤١).